

## خاتمة كتاب التذكار لابن غلبون بين السياسة والتاريخ

الدكتور : جمعة محمود الزريقي  
المستشار بالمحكمة العليا / طرابلس

كتاب التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، كتاب معروف لكل الليبيين المثقفين ، وهو من مؤلفات المؤرخ الشيخ محمد بن خليل بن غلبون (ت1151هـ تقريبا ) وقد قام الشيخ المؤرخ الطاهر أحمد الزاوي – رحمه الله – بتحقيق هذا الكتاب ونشره منذ زمن ، والكتاب يعتبر من أهم المصادر التي كتبها أبناء ليبيا في تاريخ بلادهم ، ولم يظهر بعده كتاب آخر أقدم منه سوى المصادر العامة في تاريخ ليبيا أو الغرب الإسلامي عموما .

إن جهود الشيخ الطاهر الزاوي في تحقيق الكتاب ونشره كانت كبيرة ، فهو لم يحقق النص فقط ، وإنما أضاف إليه نصوصا رأى أنها ضرورية لخدمة تاريخ ليبيا ، فأكمل بها ما وقع من نقص في الأحداث التي مرت بها البلاد ، مثال ذلك استيلاء الأسبان على طرابلس وهي فترة مهمة كما قال عنها ، وأضاف : أردت أن أذكرها مفصلة متتابعة مرتبة كما جاءت في تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، إتماما للفائدة ، وإزالة للإبهام الذي وقع فيه ابن غلبون ، وقد أخذت الإضافة خمس وثلاثين صفحة من الكتاب (1) .

بالمقابل لهذه الزيادة ، ترك الشيخ الطاهر الزاوي رحمه الله خاتمة كتاب التذكار فلم يشملها بالتحقيق ، حيث قال في آخر الكتاب : { تنبيه } لم يذكر المؤلف متى انتهى من تأليف كتابه هذا ، وقد ذكر بعد هذا خاتمة تشتمل على فائدتين : ( الأولى ) في حقيقة الملك وتوابعه ( والثانية ) فيما يحتاج إليه الملك من أعوان وسياسة ، وقد ذكر في هذه الخاتمة أحاديث كثيرة نحو 40 صفحة كلها تتعلق بفضل الرباط والمرابطين ، ومكائد الحرب وتعبئة الجيوش ونحو ذلك ، مما لا علاقة له بالتاريخ مطلقا ، لذلك رأينا عدم ذكرها .

نقل الشيخ الطاهر الزاوي من الخاتمة ما يتعلق بحدود أفريقية ، وقول الإمام مالك على أن جهاد المحارب أفضل من جهاد العدو ، ثم ذكر بيت من قصيدة الشيخ أحمد الأنصاري : -

**فلا تهج أما للثغور حنونة % كفاها مديحا عدكم هفواتها**

وتفسير ابن غلبون لكلمة الثغور ، والمقصود بها وهي طرابلس باعتبارها أول ثغر فتح في الغرب الإسلامي ، ومنها افتتحت ثغوره فهي الأصل . . . إلخ ، ثم ختم ببيت آخر من القصيدة : -

**ويكفي أهاليها من الفضل أنها % رباط لمن قد قام في حجراتها .**

ثم قال : وإلى هنا انتهى ما ذكره ابن غلبون بشأن التاريخ ، والله يتولاه برحمته ، ويجازيه عن عمله أحسن الجزاء . (2) .

(1) التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ، لابن غلبون ، ص101 – 135 حيث قال : إلى هنا انتهى ما زدناه على المؤلف مما يتعلق باحتلال الأسبان وفرسان القديس يوحنا لطرابلس ، ونعود الآن إلى ما كتبه الأستاذ ابن غلبون ، مكتبة النور ، طرابلس ليبيا ، الطبعة الثانية ، 1386 هـ / 1967 م ، .

(2) التذكار ، المصدر السابق ص 278 .

ذلك ما رآه الشيخ الطاهر له علاقة بالتاريخ من خاتمة كتاب التذكار لابن غلبون ، إذ نقل منها ما يقارب الصفحة فقط ، وترك بقيتها دون تحقيق ، وبالتالي لم تظهر خاتمة الكتاب في أي طبعة من كتاب التذكار بتحقيق الشيخ الطاهر الزاوي ، وحتى الذي قام – كما يدعي – بتحقيق الكتاب عندما نشر الكتاب مجددا لم يضمه الخاتمة ، رغم أنه قال اعتمدت في تحقيق الكتاب على نسخة مخطوطة والطبعة التي حققها الشيخ الطاهر الزاوي (1) وهذا ما يدل على أنه اعتمد عليها فقط ، فلو كانت له نسخة أخرى لأظهر خاتمة الكتاب محققة معها ، فإله يتولى أمره في ذلك .

ركز ابن غلبون في خاتمة كتاب التذكار على ثلاثة أمور مهمة هي : تنظيم الدولة في كيفية اختيار الوزراء وكبار المسؤولين وما يجب أن يكونوا عليه ، وتمييز ليبيا عن غيرها من مدن الغرب الإسلامي باعتبارها فاتحة ثغور المسلمين مما أكسبها مكانة خاصة بها كقلعة ورباط للجهاد ، والأمر الثالث : هو فضل الجهاد والرباط في الثغور وما يتعلق به من أحكام شرعية ، وجلب لهذه الأمور نصوصا كثيرة من الشواهد التاريخية والأحاديث النبوية الشريفة ، وربما كان ذلك أحد العوائق التي جعلت الشيخ الطاهر يترك تحقيقها لأن هذه الكمية من الأحاديث تحتاج إلى تخريج وبحث عنها في مظانها .

بين ابن غلبون غرضه فيما جاء ببداية المقدمة حيث قال : وإنما سقت هذه الفوائد : إحداهما : معرفة ما يلزم الإنسان مع ملكه شرعا ، والثانية : رد ما سمعناه من غير واحد أن من قبل يد الملك ليس بمبايع ، فلا يلزمه ما يلزم المبايع ، والثالثة : معرفة مصدوق البيعة لغة وعرفا (2) ، ذلك فيما يخص الأمر الأول ، أما الثاني ، وهو الإشادة بطرابلس باعتبارها أم الثغور ، فهو شرح لما ورد في قصيدة الشيخ أحمد الأنصاري الذي وصفها بهذه الصفة ، ذلك ما دعا ابن غلبون إلى جلب النصوص للتدليل عليه ، أما الأمر الثالث فهو أيضا شرح لما جاء في القصيدة من وصف طرابلس بأنها رباط ، لهذا جلب ابن غلبون نصوصا كثيرة في فضائل الجهاد والرباط ، وأغلبها أحاديث نبوية وأثار لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين رضوان الله عليهم جميعا .

إن تأليف كتاب التذكار كان بناء على طلب من حاكم ليبيا أحمد باشا القره مانلي ، خلال القرن الثاني عشر الهجري ، وقد تركز طلبه في شرح قصيدة الشيخ أحمد عبد الدائم الأنصاري التي صاغها ردا على الوزير الإسحافي المغربي الذي زار ليبيا في تلك الفترة وكان آنذاك صحبة الأمير محمد بن عبد الله وجدته خنائة ، وكانت محل حفاوة وتقدير واحترام وإكرام من قبل حاكم ليبيا أحمد باشا القره مانلي (3) ، وقد أكرمت ليبيا ذلك الوزير المصاحب للوفد ولكنه أنكر هذا الجميل وقام بنعتها بأشنع النعوت في رحلته ، ولهذا رد عليه الأنصاري بقصيدة من ثلاثين بيتا ، وهي التي قام ابن غلبون بشرحها في هذا الكتاب ، ولكن الذي نشر من الكتاب بدون الخاتمة لا يضمن سوى شرح بعض أبيات القصيدة ، وأن شرح آخر أبياتها قد ورد في الخاتمة ، وبالتالي فإن ما نشر من الكتاب لا يغطي كل الأبيات .

(1) يراجع مقال الأستاذ الباحث حسين المزداوي بعنوان " السطو على كتاب التذكار لابن غلبون ، وقد بين بالدليل القاطع انتحال المدعو أيمن البحيري لهذا الكتاب وإدعاء تحقيقه اعتمادا على نسخة مخطوطة لم يذكر مكانها وعلى ما قام به الشيخ الطاهر الزاوي رحمه الله من جهد في تحقيقه ، وبين الباحث السقطات التي وقع فيها الذي سطا على الكتاب بنقله الإضافات التي قام بها الشيخ الطاهر ولم تكن في المخطوط الأصلي ، إضافة إلى عدم ذكره لخاتمة الكتاب ، كل ذلك يدل على عدم احترامه لجهد غيره واعتدائه على حقوق الملكية الفكرية ، مجلة الفصول الأربعة ، ص 39 – 48 ، مجلة فصلية تصدر عن رابطة الأدباء والكتاب بليبيا العدد 99 السنة الرابعة والعشرون ، إبريل 2002 إفرنجي .

(3) التذكار ، ص 141 من نسخة ( أ ) المخطوط .

(3) ذكر ابن غلبون الحفاوة التي قام بها أحمد باشا القره مانلي تجاه الأميرة خنائة حرم المولى إسماعيل سلطان المغرب في زيارتها لليبيا سنة 1143 هـ وكان معها ابن ابنها محمد بن عبد الله ، وكذلك في رحلة العودة سنة 1144 هـ ، وما قدمه للركب من سكن وأكل ودواب وحماية في كافة أقاليم ليبيا ، التذكار ، ص 262 .

## ما قاله الرحالة المغربي في حق طرابلس

إن الرحالة الذي كان قوله سببا في إنشاء القصيدة الرادة عليه ، هو الوزير المغربي الشرقي الإسحاقى ، وقد كانت زيارة بمناسبة رحلة الأمير محمد بن عبد الله إلى الحج صحية جدته الأميرة خنائة سنة 1143 هـ/ 1731 ف ، ذكر الإسحاقى في رحلته مظاهر الحفاوة والاستقبال اللذين حظيا بهما الأمير وجدته ، والركب المرافق لهما ، من قبل حاكم ليبيا آنذاك أحمد القره مانلى ، والتكريم الذي حظي به الأمير ، واستقبال السكان الذين خرجوا في ملاقة الركب ، وضرب المدافع تحية لقدمه ، وخرج فرق من العسكر للترحيب بهم ، واستضافة باشا طرابلس لهم في قصره ، وتزويدهم بكل ما يحتاجون إليه من مؤن وغيرها ، للأمير وجدته وخدمه وحشمه ، وكل الوفد المرافق له ، ثم قام بسرد نبذة تاريخية عن ليبيا منذ الفتح الإسلامي إلى تاريخ الزيارة حكى فيها عن علمائها وصلحاتها وبعض الوقائع التاريخية التي حلت بها ، وذكر مساجدها ومدارسها وقبور الأولياء والصالحاء ، وقد شمل ذلك صفحات عديدة من رحلته .

وفجأة ، وبلا مقدمات قال في رحلته : وعلى كل حال فما رأيت بهذه المدينة لهذا العهد ما يروق الطرف ، ولا ما يحصره الوصف ، ولا ما يحصله به الأئس ولا ما تظمنن به النفس ، بلدة شعثة الساحة ، لا يجد القلب فيها راحة ، ضعيفة المعاش ، عديمة الرياش شابت فيها الحضارة ، وشبت فيها البداوة ، وأهلها في قلوبهم مرض ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ويكفي في وصفها قول العبدري في رحلته بعد تأمله في ذهابه وجيئه ، ومدينة طرابلس هي للجهل مأمم ، وما للعلم بها عرس (1) ثم قام بنقل ما ذكره الرحالة العبدري حرقيا ، بل وأضاف إليه قوله : ولو رأها لهذا العهد لزد لومه لأهلها وإيلامه ، ولا كبر أن تمر له على فكر ، أو يخطر بباله لها ذكر ، ومالها اليوم فضيلة ، سوى أنها يجتمع بها ركب الحجيج ، نعم الفتى وبئست القبيلة ، (2) .

وقد استغرب المؤرخ المعاصر الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي كلام الإسحاقى فقال : عجيب جدا هذا التنقل الفجائي من حديث ندى عن شخصية لها مشاركة تامة في فنون العلم إلى حديث ناشف عن طرابلس ، وكان هذا التنقل في نظرنا يحتاج - على الأقل - إلى مقدمات تهيب النفوس إلى الاستعداد لسماعه ، لكنه أتى على هذا الشكل يعبر عن نقمة كان يحس بها الإسحاقى لسبب أو آخر والكمال لله (3) وعلى كل حال ، إن ما ذكره الوزير الإسحاقى تعبير عن وجهة نظره علينا احترامها ، سواء صدرت منه عن فهم ودراسة وإدراك ، أو يكون متأثرا بموقف استفزه ، فجاء كلامه متناقضا مع ما قام بسرده من تفاصيل في تاريخ ليبيا وذكره لسيرة بعض أعلامها وفقهائها .

وعلاوة على تناقض القول في كلام الإسحاقى ، فإن شواهد رحلته تحكي عكس ما يراه ، ففي الوقت الذي كان الإسحاقى مشغولا فيه بخدمة الأمير محمد بن عبد الله وجدته خنائة ، كان زميله في الرحلة القاضي أبو القاسم العميري يعتكف في بيت أحد علماء طرابلس لينسخ كتاب الحافظ التوزري الذي شرح به قصيدة الشيخ الشقراسي وهو يتكون من ثلاثة مجلدات ، ويقوم باختصاره في كتاب اسماء ( الورد الندي ) ويشير الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي إلى أن الاختصار تم في طرابلس أثناء الرحلة (4) على النحو الموضح سابقا ، فكلاهما كان ينشد ضالته ، وشتان بين هذا وذاك .

(1) أمير مغربي في طرابلس ( 1143 هـ / 1731 م ) أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقى ، ص 104 ، تحقيق ودراسة ، أ - د / عبد الهادي التازي ، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي مطبعة فضالة ، الرباط ، د - ت .

(2) المصدر السابق ، ص 144 .

(3) المصدر السابق ، ص 143 .

(4) المصدر السابق ، ص 110 .

## ابن غلبون يلمح للوزير الشرقي الإسحاقى

وقد حكى ابن غلبون عن رجل منتسب للطلب متعلق بالفتوى ، قدم على أحمد باشا القره مانللى حاكم ليبيا آنذاك ، يطلب منه توقيعا يتضمن زيادة احترامه وتوقيره ، فأمر الأمير أجل كتبتة أن يكتب له بذلك ، وعندما سلم الكتاب لذلك الرجل ، فوجد به كلمة ( التحرير ) ومعناها : الحادق الماهر العاقل المجرب المتقن الفطن ، فلم يفهم الرجل معناها الحقيقي ، وتوهم وصفه ببيع الحرير ، فكاد أن يخرج من عقله ، وراجع بعض النبلاء واشتكى من الكاتب والأمير ، وتلفه على غضبهما حقه ، فبين له معناها ، فلم يقبل على ما يؤدي إليه ركيك فهمه من خلاف الصواب في اللغة (1) .

ويخيل إلي أن ذلك الرجل المنتسب للطلب متعلق بالفتوى الذي لم يذكر اسمه ابن غلبون هو الوزير الإسحاقى نفسه ، فلو كان ذلك الرجل زائرا عاديا لما قام بالشكوى من الأمير والكاتب ، وراجع بعض النبلاء ، واحتج على ذلك اللفظ الذي لم يفهم معناه الحقيقي إضافة إلى ذلك حرص الإسحاقى على الحصول على الإجازات العلمية في تلك الرحلة حيث جلب معه العديد منها تحصل عليها من علماء مصر والحجاز ، كما أنه يتعاطى الفتوى أيضا ، ولعل حرصه على الإجازات سببه عدم معرفة الشيوخ الذين تلقى عنهم العلم في فاس (2) ويعزز من هذا الرأي الوصف الذي ذكره أحمد النائب الأنصاري في قصيدته التي رد بها عليه ، حيث قال: -

### ألا أيها التحرير مه عن مذمة فما في الأواني بان من قطراتها

والمقصود بوصف التحرير هو الوزير الإسحاقى الشرقي ، غير أن ابن غلبون الذي ذكر القصة ، لم يشأ أن يذكر اسمه ، وهذا مستغرب لأنه معاصر لأحمد باشا ومقرب منه ولا يعقل عدم معرفته لاسم ذلك الرجل ، فذكر القصة بمناسبة شرح البيت المذكور وتورع عن التشهير به .

فلو صح هذا الظن ، لعرفنا السبب الذي من أجله تحامل الإسحاقى على طرابلس ووصفها بانعدام الحركة الفكرية ، ونقل كلام العبدري وأضاف عليه وتجاهل ما كتبه الرحالة الذين زاروا ليبيا بعده ، فجاء كلامه متناقضا في نفسه ومخالفا للواقع ، ولم ينل الرضى من أهل ليبيا وغيرهم ، يقول المؤرخ الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي :- إن عدم إنهاء الرحلة بالكتابة من قبل الإسحاقى ليضع في نظرنا علامة استفهام حول السبب ؟ فبالرغم من أن السلطان المولى عبد الله حبس المكتوب منها على خزانة القرويين الكبرى بفاس ، وبالرغم من احتمال أن الإسحاقى توفى قبل التمكن من إكمالها ، بالرغم من ذلك لا نستبعد أن تكون هناك مؤاخذة من السلطان المولى عبد الله على الأسلوب الذي تناول به الإسحاقى بعض النقاط ، سيما وقد تعودنا من الملوك العلويين كرههم الشديد لكل همز ولمز في الأبعاد بله الأقارب (3) .

ويؤيد ذلك الظن ما ذهب إليه المؤرخ الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي الذي لم يتطرق إليه الشك في أن المقصود بذلك الرجل الذي ذكره ابن غلبون هو الوزير الإسحاقى الشرقي ، ويضيف : غير أن ابن غلبون كان دبلوماسيا فلم يذكر اسمه بصراحة إذ من غير المناسب أن يتصدى إلى رفيق في الركب الأميري بالنقد الصريح ، بل وتعجب الأستاذ التازي من صبر ابن غلبون وشدة تحمله حيث مسك أعصابه ، فلم يصب جام غضبه على الوزير الإسحاقى واكتفى بالتلميح عوضا عن التصريح (4) وأضيف إلى ذلك مما يقوي هذا الرأي ويعززه وينقلب الظن إلى يقين ، أن ابن غلبون في كتابه التذكار الذي

(1) التذكار لابن غلبون ، ص 8 .

(2) أمير مغربي في طرابلس ، المصدر السابق ، ص 104 .

(3) المصدر السابق ، ص 143 ، هامش رقم 1 .

(4) المصدر السابق ، ص 70 .

شرح به قصيدة الأنصاري ، ذكر كل أبيات القصيدة كاملة ، عدا البيت الذي ورد فيه اسم الإسحاقي الشرقي ، فلم يذكره في الكتاب ، ويعد ذلك تجاهلاً من ابن غلبون لمن ذم بلاده وترفعاً عن ذكر مجرد اسمه فيه ، والبيت المقصود هو : -

### فجاءتك يا شرقي تسعى فراعها \* وكن منصفاً ثم أجن من ثمراتها

وفيه إشارة واضحة لأسم الوزير الإسحاقي الشرقي من قبل الشاعر أحمد الأنصاري ويميل إلى هذا الرأي ، وهو أن قصة ذلك الرجل التي وردت في كتاب ابن غلبون ، يقصد بها الإسحاقي الشرقي ، الزميل الأستاذ الدكتور عبد الحميد الهرامة في دراسته لأثار الشاعر أحمد بن عبد الدائم الأنصاري (1) .

إن ما كتبه الإسحاقي في رحلته عن ليبيا لم يغيب عن بال أبنائها مثلما هو الحال في رحلة العبدري ، والتي لم تصل - فيما يبدو - إلى علم أهلها في الحين ، أو أنه وصل ولم يكن في مقدورهم الرد عليه آنذاك ، ومع ذلك أدلى بوجه نظره وكان صادقاً مع نفسه ، حيث بين السبب الذي جعله يعتقد ما ذهب إليه ، إذ ذكر المحاوراة التي جرت بينه وبين أحد العلماء في مدرسة طرابلس التي قام بوصفها في رحلته ، وهو القاضي الخطيب الشيخ أبو محمد عبد الله بن عبد السيد والمحاوراة كانت في مسائل فقهية لم يقتنع فيها العبدري برأي ذلك الشيخ ولعل ذلك كان من الأسباب التي جعلت العبدري يذم طرابلس وأهلها ونعتهم بالجهل ولم يكفه وجود دروس في التفسير والحديث والفقهاء في هذه المدرسة ، وقد وصفه بأنه لا رواية له ، وقد قمت مؤخراً بدراسة هذه المناقشة التي تمت بينهما من خلال بحث قدمته إلى ندوة ليبيا في الرحلات العربية والغربية عقدت بطرابلس سنة 2008 م (2) .

ومع ذلك لا يمكن التسليم بما ذكره بكل سهولة لأنه يخالف كلام الرحالة ابن رشيد السبتي الذي زارها قبل العبدري بثلاث سنوات ، وكلام الرحالة التجاني الذي زارها بعد عقد ونصف من الزمان ، ومكث فيها طويلاً ، ويبدو أن الرأي الذي خرج به الأستاذ خليفة التليسي ، يعطي التفسير الصحيح لموقف العبدري حيث قال: إن الأحكام التي أطلقها العبدري رغم قسوتها تتفق مع الواقع التاريخي للحياة العلمية في تلك الفترة ، فلم تكن طرابلس خلالها من المراكز الثقافية الكبرى التي تضارع المراكز الثقافية الهامة في الشمال الأفريقي مثل تونس وفاس (3) وسلامة هذا الرأي تدل على أن طرابلس لم تضارع الحواضر الكبرى غير أنها لم تكن خالية من الحركة العلمية ، بل تسير في ركبها ، وإن كانت في درجة أقل من تونس وفاس ، بدليل لقاء العبدري أحد علمائها والمحاوراة التي تمت بينهما في المدرسة التي زارها العبدري .

أثارت آراء الوزير الإسحاقي أدباء طرابلس وعلمائها ، بل واستفزت بلاطها في ذلك الوقت ، فلم يسلموا بأحكامه التي أطلقها ، فكان من الطبيعي أن يدافعوا عن بلادهم وبتصدوا للرد عليه ، ويدلوا على مكانة ليبيا وتاريخها بذكر علمائها وأدبائها والصالحين بها ، وذكر فضائلها ومكانتها كثر إسلامي رفع راية الجهاد ، ودافع عن الإسلام ، وله تأثير وتأثر بكل ما يهم أمور المسلمين في كل مكان ، وخاصة علاقتها مع ثغور الغرب الإسلامي ، فانبرى أحد فحول شعرائها وعلمائها ، وهو الأستاذ الفاضل الأديب الشيخ أحمد بن عبد الدائم الأنصاري المعاصر لزمان الرحلة ، وأنشأ قصيدة من ثلاثين بيتاً ، قال في أولها : -

بلا جارج والأسد في فلوتها  
فقال كفاني إنه من صفاتها

أرى زماً جاء يقتنص المهام  
رأى الفيض مبيضاً بمزبلة الحمى

- (1) فصول من تاريخ ليبيا الثقافي ، أ-د / عبد الحميد عبد الله الهرامة ، ص 156 ، أصالة للنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1999 م .
- (2) لقاء الرحالة العبدري مع قاضي طرابلس ابن عبد السيد من خلال الرحلة المغربية ، قدم لندوة ليبيا من خلال الرحلات العربية والغربية ، مجمع اللغة العربية ، طرابلس ، ليبيا ، 21 - 22 / 1374 ور ، 2008 م .
- (3) حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب ، د / خليفة التليسي ، دار العربية للكتاب ، 1974 م .

وفي مجال الدفاع عن طرابلس قال :

طرابلس لا تقبل الذم إنها  
إذا أمها من قد نأته بلاده  
تظامن عن نفس ومال وعشرة  
لها حسنات جاوزت سيناتها  
وأوحشه ذو أمرها من حماها  
ويضحى بعز إن أتى لجهاتها

ولم يخف الشاعر اسم الوزير الإسحاقى الشرقي المقصود بالرد على ذمه لطرابلس  
فذكره بصراحة ، فقال في آخر القصيدة :

فجاءتك يا شرقي تسعى فراعها  
وصل وسلم يا إلهي على الذي  
واله والأصحاب ما قال نابيه  
وكن منصفاً ثم اجن من ثمراتها  
هدانا بنوره الحق من ظلماتها  
حذار فسم النفس في شهواتها

تعرض الشاعر في هذه القصيدة الرائعة لذكر فضائل ليبيا ، ودورها التاريخي في  
الجهاد ، ومكانتها كثر إسلامي في الدفاع عن الإسلام ، وأشار إلى علمائها وأفاضلها  
وأهل الصلاح بها من أهلها ، أو من الذين اختاروها مستقراً ومقاماً من غيرهم ، إلى جانب  
شجاعة أهلها وكرمهم وفضلهم ورعايتهم للغريب الذي يحل بأرضهم ، وبصورة عامة  
فالقصيدا تعتبر من الأدبيات الخالدة في التاريخ الليبي.

ولم يكتف أهل ليبيا بهذه القصيدة في الرد ، رغم أنها كانت كافية في تفنيد كل ما ذكره  
الوزير الإسحاقى الشرقي في رحلته ، فتحمس البلاط أيضاً في اتخاذ موقف علمي تجاه  
الوزير المذكور ، فقام أحمد باشا القره مانلي بتكليف أحد علماء ليبيا ، وهو الشيخ أبو عبد  
الله محمد بن خليل بن غلبون بشرح القصيدة وتوضيح ما جاء فيها من ردود مختصرة  
وإشارات وتلميحات لفضائل البلاد ودورها التاريخي ، ونهض ابن غلبون بهذه المهمة  
فوضع كتاباً شاملاً لتاريخ ليبيا ، مؤدياً بذلك خدمة جليلة لتاريخها ، بدأه من تاريخ الفتح  
الإسلامي سنة 22 هـ إلى قيام الدولة القره مانلية ، وهو بعنوان ( التذكار فيمن ملك ليبيا  
وما كان بها من الأخبار) وهو الذي تقوم بدراسة خاتمة التي لم تحقق بعد .

### مصادر الخاتمة

اعتمد ابن غلبون في تأليف خاتمة كتاب التذكار على عدة مصادر تاريخية وفقهية ولكن  
جل اعتماده كان على ثلاثة مصادر هي :-

1 – كتاب بدائع السلك في طبائع الملك ، لأبي عبد الله محمد بن الأزرق الأندلسي ، المتوفى  
سنة 896 هـ / 1491 م ، وهو دراسة متعمقة لمقدمة ابن خلدون ، وتلخيص وتعريف  
بأفكاره ، مع إضافة فوائد أخرى ، لا سيما فيما يتعلق بالأخلاق والأحكام الشرعية ، زيادة  
على تنظيم مواضيعه وتبويبها بشكل دراسي مفيد (1) وقد اعتمد عليه ابن غلبون في بداية  
هذه الخاتمة ، ونقل منه بما يوازي الخمسة عشرة صفحة الأولى منها ، وإن كان لم يشر  
إلى ذلك في بداية النقل ، إلا أنه ذكر ابن الأزرق وكتابه ثلاث مرات في الخاتمة ، وهو  
يغطي الفكرة الأولى فيها .

2 – كتاب طبقات علماء أفريقيا وتونس ، لأبي العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني  
المتوفى سنة 333 هـ / 944م ، يضم هذا الكتاب نبذ تاريخية تتعلق بالمنطقة الجغرافية  
المخصص لها ، كما يحتوي على مجموعة كبيرة من التراجم لعلماء القيروان وتونس في  
أسلوب علمي يطغى عليه طابع الأمالي ، كما أن مؤلفه يعتني عناية كبيرة بالسند بالطريقة

(1) بدائع السلك في طبائع الملك ، تأليف أبي عبد الله محمد بن الأزرق الأندلسي ، المتوفى سنة 896 هـ  
/ 1491 م ، دراسة وتحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم ، نشر الدار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس  
، 1976 م .

التحديئية المعروفة (1) ، وقد اعتمد عليه ابن غلبون في إثبات أن الغرب الإسلامي هو الذي يقوم برسالة الجهاد والدفاع عن الثغور، ونقل عنه بعض الأحاديث المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، التي استدل بها ، ليصنفها ابن غلبون في أن المقصود بها ثغر طرابلس الغرب ، لأنه القائم برسالة الجهاد آنذاك .

3 - كتاب مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام ( في الجهاد وفضائله ) تأليف أبي زكريا أحمد بن إبراهيم بن محمد الدمشقي ثم الدمياطي المشهور بابن النحاس ، توفي سنة 814 هـ (2) لقد كانت الصدفة وحدها هي التي مكنتني من معرفة هذا المصدر ، رغم أن ابن غلبون أشار إلى اسم المؤلف في عدة مواضع من الخاتمة ، بعبارة قال ابن النحاس ، دون أن يذكر الكتاب ، وكنت أعتقد أن الأحاديث التي أوردها في الخاتمة نقلها من مظانها ، خاصة وأنه يستعمل عبارة : ومما رويناها في كتاب . . . ، ثم اتضح أنه ينقل حرفيا من كتاب ابن النحاس مشارع الأشواق ، وقد اعتمد عليه ابن غلبون في نقل الأحاديث والآثار المتعلقة بالجهاد .

### هدف الخاتمة وقيمتها العلمية

يتبادر إلى الذهن بهذه المناسبة السؤال التالي : هل خاتمة كتاب التذكار لها علاقة بتاريخ ليبيا أو أنها بعيدة عن ذلك حسبما لاحظ عليها الشيخ الطاهر الزاوي رحمه الله عندما لم يتناولها بالتحقيق وتركها مخطوطة ؟ ولكن تحقيقها الآن ربما يكشف عن أمور أخرى هي التي جعلت المؤلف يضمنها كتابه الخاص بتاريخ ليبيا ، وأن هذه الأمور قد تكون لها علاقة بتاريخها ، وعلى ذلك يمكن طرح الأسئلة التالية حولها : -

أولا : ما نقله عن كتاب بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق من معلومات تتعلق بنظام الحكم ، منها ما ورد في معنى الإمامة المرادفة للملك ، ثم بيعة الخلفاء والملوك ، وولاية العهد ، ثم أسباب قيام الحرب بين الدول ، وما يتبع ذلك من بيان الخطط الحربية أو طرق القتال ، واستعمال المكاييد الحربية ودفاع العدو ، وهو الجانب الأول ، أما الجانب الآخر فهو يتعلق بأعوان الحاكم من وزراء وغيرهم ، كيف يتم تنصيبهم واختيارهم ، وما يشترط فيهم من صفات خلقية وخرافية ، وما يجب على الملك وأعوانه من إقامة الشريعة وإصلاح الدولة والاهتمام بأمور الرعية ، وإقامة العدل والسياسة الشرعية في تدبير أمر البلاد والعباد ، فهل إدراج هذه الأحكام المتعلقة بشؤون الحكم وإصلاحه هي من إيعاز أحمد باشا للمؤلف ، أو أن المؤلف هو الذي أوردها بقصد إصلاح البلاد ؟ ، أو كان لغرض آخر ؟ .

ثانيا : أخذ المؤلف بعد ذلك في بيان فضل الغرب الإسلامي قاطبة ، مع بيان حدوده الجغرافية وحدود المنطقة التي تسمى أفريقية آنذاك ، وقام بجلب الأحاديث النبوية التي وردت في بعض المصادر بتفضيلها على غيرها من المناطق ، على اعتبار أن الجهاد سينقطع إلا فيها معتمدا في ذلك على كتاب طبقات علماء أفريقية لأبي العرب التميمي ، الذي سرد في كتابه عدة أحاديث عن فضل الغرب وأفريقية والمنستير بنونس ، وهو في ذلك ينتصر لبلده أكثر من غيرها ، إلا أن ابن غلبون يوجه هذه الأحاديث إلى حيث يرغب ، وهو أن المقصود بها هي طرابلس الغرب دون غيرها ، مبينا أن اشتغال أهلها بالجهاد برا وبحرا أشهر من يذكر ، وهنا يحق لنا أن نتساءل عن مدى صحة هذه الأحاديث المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؟ وعن مدى صحة ما يدعيه ابن غلبون أن طرابلس الغرب هي من أهم المناطق التي تقوم بدور الجهاد في سبيل الله قديما أو في عصر المؤلف ؟ ، أيضا هل كان ذلك بإيعاز من حاكم البلاد آنذاك لتوظيف هذه المعلومات والإرشادات الدينية لتوسيع دائرة الجهاد في البحر ؟ .

(1) طبقات علماء أفريقية وتونس ، لأبي العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني ، المتوفى سنة 333هـ / 944 م ، تحقيق الأستاذين : علي الشابي الجامعة التونسية ، ونعيم حسن البياتي الجامعة السورية الدار التونسية للنشر ، 1968 .

(2) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام ، في الجهاد وفضائله ، تأليف أبي زكريا أحمد بن إبراهيم بن محمد الدمشقي ثم الدمياطي ، المشهور بابن النحاس ، المتوفى سنة 814 هـ ، تحقيق ودراسة الأستاذين : إدريس محمد علي ، و محمد خالد إسطنبولي ، وهو في الأصل رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، 1405 هـ ، تم تنزيله من المكتبة الشاملة بشبكة المعلومات الدولية .

ثالثا : كثف ابن غلبون جهده في جلب عدد كبير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار المروية عن السلف الصالح في فضل المرابطة في الثغور ، وما يحصل عليه المرابط من أجر وثواب يفوق غيره ، وكذلك الأحاديث التي تحت على الجهاد ومكافحة العدو عند دخوله للبلاد ، وأن المرابطة والاستعداد للجهاد أفضل من بعض الأعمال الأخرى ، وجلب لذلك من النصوص الكثيرة من كتب التفسير وكتب الأحاديث الشريفة والفقه والأصول إلى جانب المصادر التاريخية ، بشكل يدل على تركيزه واهتمامه وربما إلحاحه على هذا الأمر ، وذلك ما يوجب التساؤل ، هل كان ذلك بناء على سياسة الدولة التي تريد أن تقوم على الدور الجهادي ؟ ، أو أنها تواجه تهديدات خارجية ، فتقوم بتعبئة الناس من خلال التوعية الدينية لرسالة الجهاد والمرابطة في الثغور ؟ .

إن هذه الأسئلة التي طرحتها ، قد نجد الإجابة عنها خلال الدراسة التي سأقوم بها بإذن الله سبحانه وتعالى بعد الانتهاء من تحقيق نص الخاتمة التي أعتقد أنها لا تخلو من فائدة ، فهي وإن لم تكن لها علاقة مباشرة بتاريخ ليبيا ، فهي أقرب إلى السياسة منها للتاريخ ، إلا أن تحليل نصوصها ومضامينها ربما يؤدي إلى معرفة بعض الحقائق حول تاريخ تلك الفترة والله المستعان .

والحمد لله رب العالمين

د / جمعة محمود الزريقي  
المستشار بالمحكمة العليا  
أستاذ متعاون مع الجامعات الليبية

طرابلس 29 رمضان المبارك 1430 هـ  
الموافق 18 / الفاتح / 2009 م .